

لقمان بدر غرة يزن علي

العدالة ودورها ضمن وظائف إمام

الخلاصة

العدالة مسألة حيوية وأساسية في طرح الإمامة، لا يمكن تجاوزها، لما تحدّده من آثار مهمة بالنسبة للإمام والمفترض الطاعة من الله، لا يخالف التعاليم والأهداف التي رسمتها له يد السماء، وإن كانت تلك التعاليم بخصوص الأوامر والنواهي أو الأمور الأخرى المتعلقة بأمر الهداية وشؤونها.

ومن المتسالم عليه عند أهل البيت عليهم السلام أنّ الواصل من الأنبياء والرسول إلى درجة الإمامة بالتدرج، بهم تنجلي الظلمات، ويُهزم الشيطان وأعوانه، وتترسخ رسالات الله، وتصبح واقعاً وحقيقة. وذلك من خلال الممارسة العملية لهؤلاء الأئمة الهداة. مما يجعل من لديه ملكة التلقي والقبول من أصحاب العقول ينجذب نحو ما يريد تنفيذه وتطبيقه ذلك الداعي إلى الله تعالى. وهذا يتجلى بالوحي الإلهي لهداته ودعائه بإلهامهم إقامة المجتمع القائمة دعائمه وأسسها على الهدى والحق والمعرفة والعدالة، إضافة إلى حسن توفيقهم.

الكلمات المفتاحية: العدالة، الإمام، الوظيفة، عدالة الإمام.

العدالة في البعد الاجتماعي

من خلال ما تبين سابقاً المقدمات الأساسية تتجلى نتائج هذا التوفيق والمدد بإرساء قواعد الخيرات، والأعمال الصالحة، مع سريان وجريان الإيمان واليقين بالمفترضات الإلهية، والواجبات الشرعية، وتثبيت أركان التوحيد المحض البعيد عن الشرك والإلحاد.

وحينئذ تنشأ بيئة، أو دولة، أو حكومة، أو مجتمع يقوده زعيم تميل نحوه القلوب، وتشغل فيه الأذهان، وتمسك بحبله الأئمة الوالدة، ويعض عليه الجميع بنواجذهم، لكونه أصبح الملاذ والملجأ، وسفينة النجاة لسائر المستضعفين الذين وجدوا بوجوده لذة للوجود، وصار ما كان يدور في خلدكم منذ زمن بعيد حقيقة لا شك فيها، ولا ينتابهم مثقال حبة خردل من ريبة نحوه. لأنهم تشربوا حبه، وأصبحوا ممن يثقون بكل حركة وسكنة من الأمور التي يقوم بها. وهم على يقين تام بكل أفعاله وأقواله، لكونها نابعة وتابعة لأوامر الله الذي اختاره ليكون منقذاً للناس من براثن الجهل والضلال والظلم.

وإن كل ما سوف يتحقق في دولة الإمام المعصوم هو ناشئ من جانب بسط عدالته، والعمل بمقتضاها، لأن العدل به تستقيم الحكومات، وتقوم الدول، وتشرق شمس الحياة والوجود على الجميع. ومما لا يخفى على ذي لب أن أحد غايات وأهداف الحكومة في النظام الإسلامي هو أن يقيم الحاكم العدل بأبعاده واعتباراته ومصاديقه المتعددة، ولا يمكن أن يحقق هذا الهدف إلا الذي من بيده سلطة الحكم والتدبير، ومن شملته آية الإمامة التي حملت العهد على الإمامة المشتملة على النبوة والرسالة، وهو الذي يجعل شعار الدولة وعلامتها إقامة العدل ونبذ الظلم ومقارعة الظالمين، وعدم العمل معهم. إذ يقول الله: (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ) (هود، ١١٣)

العدالة والأنسب للأمة

إذا تم قبض الظلم والجور ورفع الحيف عن العباد، عمت الخيرات وطمت البلاد طمًا، وذلك بفضل انبساط بساط العدل، ومعاملة الناس على أساس العدل والعدالة التي إن تمت، فعندئذ يتحقق قول الله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ) (الانبيا، ٧٣) لأن الخير يكاد ينعدم في ظل حكومة الظالمين، بسبب هيمنة الأشرار، والبطش بأيدي شرورهم، وعموم إفسادهم وفسادهم في البلاد. وقد قال الله عز وجل: (...هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (النحل، الآية ٧٦) فشتان بين من يدعو ويأمر بالعدل، وبين جائر وظالم في سلطانه.

ولا يقف فعل الخير عند الإمام العادل الهادي عند حدٍّ محدود، ولا يتقيّد في اتجاه واحد، أو بعض الجوانب. لأن الحكم بالعدالة يقتضي فتح أبواب الخير جميعها. فيما يخطر على البال، وفيما لا يخطر على قلب بشر. لأن أيضاً خزائن خيرات الإمام مددها من خزائن إحسان الله وفضله وكرمه. وهي خزائن لا تنقص، ولا تنفذ في كل الأحوال.

وإن المراد من قول الله عزَّ عزه (فعل الخيرات) جميع المعاني والمفاهيم والمضامين والمصاديق لكلمة الخيرات المادي منها والمعنوي. لعدم حصرها في معنى أو مصداق واحد. وهذا شأن الإمام وحده الذي لا يشاركه في هذه الشأنية واحد من الناس، بسبب عدم نهمه أو شرهه أو بخله أو حرصه السلبي والمنهي عنه، لعلمه كما أخبره الله أنَّ كل شيء له وبه، وأنَّ هذه الدنيا بكل ما فيها من لذائذ ولذات فانية هي لا قيمة لها في عينه، وهو يكتفي منها ما يكفيه، وعن مدَّ يده للمخلوق يغنيه.

وخير من يعبر عن هذه الحالة هو مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) حين قال: (ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك. ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً.... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيير الأطعمة) (نهج البلاغه، ج ٣، ص ٥٠٥-٥٠٦)

وبالعودة إلى الآية، فإننا نرى محتويات كل جملة منها هي مظاهر تجليات عدالة الإمام في العباد والبلاد، لأنَّ من وراء ترجمة الإمام لهذه الوظائف سوف يُولدُ جيلٌ يتمصص ثوب الأخلاق، ويرتدي أثواب فعل الخيرات، من جرَّاء اقتدائه بالأسوة والقدوة الحسنة، وهو الجامع لجميع شروط الخير، والبادئ بنفسه أولاً، أمراً ونهياً، ليكون له ذلك الاحترام والتقدير في قلوب رعيته، وحتى يلمس التأثير الإيجابي الضامن له تحقيق السعادة في الدارين لمن ينشدها ويطلبها، ويسعى إليها بكل قواه الظاهرة والباطنة. وهذه صناعته ووظيفته الأساس التي لأجلها نال الخطوة القصوى والدرجة الكبرى عند باعث ومرسل الأنبياء والرسل، وجاعل الأئمة هادين مهتدين. وذلك بتوفيقه ومشيتته، واصطفائه لهم، وعدم سلبهم الإرادة والاختيار.

فتكون قد اجتمعت في الدعاة الهداة الكفاءة والأهلية وحسن السعي، مع اجتناء الله لهم. فكانوا بهذه الصفات أئمة للناس، ينقلونهم من الظلمات إلى النور، وكانوا بالوحيين التشريعي والتكويني مع المؤهلات الذاتية والكفاءات النفسية أئمة يهدون بأمر الله، فاستحقت الأمة المطيعة لهم أن تكون خير الأمم، وأن تسود على العرب والعجم.

إذاً حين يرى الذي يعيش في دولة الخيرات التي يرعاها ويحكمها الحاكم العادل، أن هذا الحاكم بنفسه هو الذي يطمح أن يعيش الجميع في ظل دولته، وذلك حين يراه بأقواله وأفعاله يجسد الشخصية المثالية العادلة بلا رياء لا كذب ولا مخاتلة، فينشأ عندئذ أناس يمثلون البطانة الصالحة والحامّة المخلصة لذلك الإمام الراعي لمصالح أبناء دولته وأُمَّته. ويكون هذا جزءاً من كُلِّ تحقّقه العدالة حين يبسطها الإمام بكلتا يديه، فتُغاث الأمة بالخيرات وتُستمطر بالمواهب والنعم والعطايا، وترى حالها في أحسن حال باقتدائها بأكمل وأفضل الرجال.

وقد شرحت الروايات وبيّنت الفرق بين أئمة الكفر والضلال، وبين أئمة الخير والهدى والإيمان، وفي ذلك يقول الإمام الباقر (عليه السلام): (الأئمة في كتاب الله إمامان قال الله: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) لا بأمر الناس، يُقدّمون أمر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم، قال (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار)، يُقدّمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلافاً لما في كتاب الله) (المجلسي، ١٤٠٣ ق، ج ٢٤، ص ١٥٦)

فالإمام الهادي بأمر الله هو إمام جامع استجمع مراتب السلوك الكمال التكاملي. وقد منعه هذه المقامات الطاهرة من النزول والهبوط إلى أرض العيوب والنقائص، والذنوب بأشكالها وحجمها. قبل نيل هذه الدرجات وبعدها. وقد سئل المولى الباقر (عليه السلام) عن قول الله جلّ وعلا: (لا ينال عهدي الظالمين) قال: (أي لا يكون إماماً ظالماً) (المجلسي، ١٤٠٣ ق، ج ٢٥، ص ٢٠٢-٢٠٣)

فكيف ينال أو يحظى شرف عهد الله، وهو الإمامة ظالم لنفسه أو لغيره؟! فالفاسق أو الظالم أو السفیه هو خارج دائرة العهد الإلهي. باعتبار أن هذا العهد ليس من أهله إلا أهل الطهارات الكثيفة واللطيفة. وتلك للذرية هي ذرية بعضها من بعض. كما يقول الله في القرآن الكريم: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (آل عمران، ٣٤)

وهذه ذرية بريئة من كل نقص وعَرَض، ورجز وعاهة وآفة ومرض، وقد نجحت وأفلحت، واكتملت لديها دائرة الكمال البشري، فحصلت على أعلى وأجل الأوسمة، وهو وسام الإمامة، وحازت على شرف الهداية بأمر الله، والتي بها تكثر الخيرات، وتعم البركات ذلك الوجود الذي لم تزل شمس النهار تشرق عليه وتغرب عنه لتعود إليه.

مع رجائنا الدائم والمستمر ودعائنا الخالص أن تشرق شمس الإمام بإذن الله، لتحيا جميع الكائنات، وينعم سكان الأرض بفرج قريب، ورخاء وعافية دائمة. ولا اجتماع الأسباب الموجبة للاستضاءة والاستنارة بنور الإمام استحق بها أن يكون هادياً للناس من ضلالهم وقائداً لهم إلى الهدى. فقال الله في هذا الشأن: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (الرعد، ٧) فالآية صريحة في مرادها، وواضحة في مفادها، وجلية في معناها ومقصودها. فهناك وظيفتان ومسؤوليتان، الأولى منوطة ومرتبطة بالمنذر وهو النبي أو الرسول، والثانية مسؤولية خليفة النبي، وهو الإمام الذي يأخذ بالذين لديهم القابلية والاستعداد للهداية.

فالنبي تقتصر وظيفته على إنذار القوم، وأما الإمام فمسؤوليته هدايتهم. وقد قال الإمام الصادق (عليه السلام) عن قول الله تبارك وتعالى: (...إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) فقال (عليه السلام): (رسول الله (صلى الله عليه وآله) المنذر وعليّ الهادي، والله ما ذهب منّا، وما زالت فينا إلى الساعة) (المجلسي، ١٤٠٣ ق، ج ٢٣، ص ٣-٤) فالآية عامة تشمل كل نبي ورسول، وخاصة برسول الله محمد (صلى الله عليه وآله). وهكذا عمومها بالأئمة الهداة السابقين، وخصوصها بالإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام). وهذا لا يعني أن النبي الأكرم ليس جامعاً لمراحل السير الإبراهيمي، بل هو

نبي ورسول وإمام أيضاً إبراهيم الخليل. بيد أن الآية أرادت أن تُمَيِّز وظيفة النبي عن وظيفة الإمام الهادي، والذي يُمَثَّل هذه الوظيفة بعد النبي هو علي بن أبي طالب.

العدالة المطلقة صفة اختصاصيّة للإمام الإلهي

وظيفة الإمام لا يدعيها غير المنصوص عليه، ومن ادّعاها سواه فهو مُدَّعٍ ومفترٍ كذاب. لأن اختيار هذه المنزلة تقع على عاتق النبي أو الرسول المأمور أن يبين لأمته من هو القائم مقامه من بعده. فقد قال الإمام الرضا (عليه السلام): (...فكيف لهم باختيار إمام؟! والإمام عالم لا يجهل، داح لا ينكل، معدن القدس والطهارة، والنسك والزهادة، والعلم والعبادة) (ابن بابويه قمي، ١٣٧٧ ش، ص ١٠٠)

ومنصب الإمام هو منصب إلهي لا يصل إليه بالإضافة إلى الاختيار والاصطفاء إلا الذين اجتازوا جميع الابتلاءات والبليات والاختبارات بالصبر والتسليم، والإيمان واليقين. وهو مركز يختص الله به من يشاء من عباده المخلصين. وفي هذا يقول الإمام الصادق (عليه السلام): (من ادّعى الإمامة وليس بإمام فقد افترى على الله ورسوله وعلينا) (المجلسي، ١٤٠٣ ق، ج ٢٥، ص ١١٢)

ولعظمة شأن الإمام، وعلو هذه المرتبة السامية كانت مسك ختام سُلم الصعود، واكتمال دائرة الكمال أو التكامل، الفائز به خليل الرحمن، ومن سبقه، وممن جاء بعده، فحصل على باقية من هذه العطاءات الإلهية. وفي هذا الخصوص يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إنَّ الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإنَّ الله اتخذ نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإنَّ الله اتخذ رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإنَّ الله اتخذ خليلاً قبل أن يتخذه إماماً. فلما جمع له الأشياء قال: (إني جاعلك للناس إماماً) قال: فمن عظمها في عين إبراهيم (عليه السلام) قال: ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) قال: لا يكون السفیه إمام التقي). (الكليني، ١٣٦٣ ش، ج ١، ص ٩٤)

ومن هنا كان لاتصاف الإمام بالعدالة الدور الكبير جريان وسريان استقامته وتأثر مقلديه وتابعيه به، واعتدالهم واستقامتهم على طريقته. لأنَّ الآيات الحاكية عن استقامة المدعاة الهداة تعبیر عن ثمرة سلامة وصحة المعتقد والتوحيد، وإيمانهم بربهم المنزّه عن التشبيه والتعطيل وسائر الشبهات الفاسدة، فهي آيات تحكي عن الموصوفين بهذه الصفات الكريمة. وعنهم وفيهم يقول الله تبارك وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الأحقاف، ١٣) وقال جلّ جلاله: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) (فصلت، ٣٠) فالآيتان فيهما تأكيد صريح أن الإيمان الصحيح بالله، والعمل بطاعته في هذه الدنيا يجعل الإنسان مطمئناً يوم القيامة. لأن الله في هذه الدنيا يورث المؤمن التقي أمناً وسكينة في الآخرة.

وإذا كان هذا حيدن الذين آمنوا من غير أهل الاختيار والاصطفاء، فما بالملك وما ظنُّك بالمصطفين الأخيار الذين اجتباهم الله وانتقاهم ربهم وجعلهم أئمة هداة يأمرهم بأمره؟ فالمدعاة والأئمة الهداة هم أشدُّ عباد الله إيماناً و يقيناً،

وإقراراً، واعترافاً، وشهادةً بالربوبية والوحدانية لله. وعلى مقتضى إقرارهم هذا كانت استقامتهم وطاعتهم لمولاهم. وقد نقل الفيض الكاشاني عن كتاب الكافي قول الصادق (عليه السلام): (استقاموا على الأئمة واحداً بعد واحد). (الكاشاني، ١٤١٦هـ، ج ٣، ص ٢٦٠)

إذاً فإن موضوع الطاعة للإمام، وإظهار الاستقامة له، والتأثر بطاعته هو سر القضية وجوهر المسألة، والذي تؤكد بعض آيات القرآن. فقد وجدنا الإمام الصادق (عليه السلام) يُفسّر الاستقامة في الآية المتقدمة آنفاً بالاستقامة على نهج أئمة أهل البيت (عليه السلام)، باعتبارهم ورثة الحبيب المصطفى، وهم الأئمة الهداة من بعده، وباعتبار رسولنا محمد (صلى الله عليه وآله) عنده كل ما كان لدى الأنبياء السابقين، والرسل الماضين، وأيضاً باعتبار أن أئمة أهل البيت عليهم السلام يمثلون الجانب التنفيذي والعملية لشريعة جدهم المصطفى.

وتكاد لا تُحصى الروايات في هذا الأمر، وجميعها تتحدث عن المنزلة الكبرى لرسول الله وأهل بيته عليه وعليهم آلاف التحايا. تلك المنزلة التي انفردوا بها عن باقي المدعاة الإلهيين والهداة الربانيين. فقد قال جابر بن عبد الله: قلت لرسول الله (صلى الله عليه وآله): (أول شيء خلقه الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر...) (المجلسي، ١٤٠٣ ق، ج ٢٥، ص ٢١-٢٢)

فحببنا محمد (صلى الله عليه وآله) أول مخلوق خلقه الله وكونه، فهو نوره وكلمته وحجته على أهل الأرض والسموات وعلى كل ما خلق وأبدع الباري من العوالم. وهكذا هي منزلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وحسبه ما قال سيدنا محمد فيه: (كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الرحمن قبل أن يخلق عرشه بأربعة عشر ألف عام) (المجلسي، ١٤٠٣ ق، ج ٢٥، ص ٢١)

وقد قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله): (يا علي أنت والأئمة من ولدك بعدي حجج الله على خلقه، وأعلامه في بريته. فمن أنكر واحداً منهم فقد أنكرني... ومن أطاعكم فقد أعطاني). (المجلسي، ١٤٠٣ ق، ج ٢٣، ص ٩٧)

ولما كان لكل شيء ضدّ ونقيض، فإن نقيض العدالة هو الظلم والجور. وقد قيل: (والضد يظهر حسنه الضدّ) فالعدل نور والظلم ظلمة. فإذا عمّ ظلم الحُكّام وجور السلاطين في أنحاء الأمصار والبلدان، وتآذى عباد الله من ظلمهم وفسقهم، فلا بد أن يكون مجيء الأئمة الهداة قريباً عاجلاً، ليسود عدلهم وتعم مكارم أخلاقهم زوايا الوجود، وليدفعوا جور الجائرين تحت نعال أقدامهم، وليستنشق الناس شذا عبير أحكامهم العادلة، وفي ظل سلطانهم لا يُظلم أحد.

ومن أجمل ما قرأت في حياتي كلها، ذلك الكتاب والعهد الذي كتبه سيدنا علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمالك الأشتر رحمه الله، إذ يقول في بعض سطور صفحاته المضيئة: (.... ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حرباً ينزع أو يتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على

ظلم. فإنَّ الله سميع دعوة المضطَّهدين، وهو للظالمين بالمرصاد) (نهج البلاغة ج ٣، ص ٥١٩) والحديث عن العدالة له شعب كثيرة، وتأثيرات أخلاقية وتربوية وسلوكية حسنة.

وقد تقدّم تعريف العدالة في المقدمة لغةً واصطلاحاً، ولا ضير هنا إذا ذكرنا ما ورد في بعض الكتب الفقهية معنى العدالة اصطلاحاً. فقد قال آية الله المشكيني: (...العدالة الاستقامة وعدم الانحراف... لكن الفقهاء قد عرّفوا العدالة في كلماتهم بتعاريف يظهر منها أنَّ لهم اصطلاحاً خاصاً فيها. فمنها: ما نُسب إلى المشهور بين المتأخرين من أنَّ العدالة ملكة أو هيئة راسخة باعثة على الإتيان بالواجبات، وترك المحرمات. والمراد كونها باعثة بالفعل بحيث لو سقطت عن الفعلية لم تكن عدالة) (المشكيني، 1419ق، ص ٣٦٩)

عدالة الإمام والأخلاق الفاضلة

من المؤكد أن الله تعالى جعل الأخلاق الفاضلة من الركائز التي ارتكز عليها دينُ الله، وأنَّ جميع الشرائع السماوية دعت إلى التحلي والتخلق بالأخلاق السامية، والعمل على تجسيد تلك الفضائل التي دعا إليها الدعاة وجسدها سفراء الله. لأنَّ الأخلاق العالية هي الفطرة الصافية المفطور عليها الإنسان أساساً، ومن دون هذه الأخلاق الرصينة يصبح الإنسان آله مستعبدة تتحكم فيه الصفات البهيمية وتجعل منه سبُعاً ضارياً لا يُفرّق بين الحلال والحرام. وقد أصّل بعض العلماء والحكماء الأخلاق إلى أصول فقال البعض: إنَّ الأخلاق تقوم على أصول أربعة هي العدالة والحكمة والعفة والشجاعة. فهذه أصول رفيعة إذا اجتمعت في واحد رفعت إلى الملكوت الأعلى.

فالعدالة ركن أساس من أركان أخلاق مبليغي رسالات الله تعالى. وأقدر الناس قدرة على ضبط النفس وتهذيبها وتركيتها وتغذيتها بما ينفعها هم المصطفون الذين اصطفاهم رب العزة. فهؤلاء لا يجتنبون فضيلة ولا يرتكبون رذيلة، ولا تجد فيهم صفة سلبية أو ذميمة. فيفعلون كل خير ويتخلون عن كل شر.

وإذا كان الله عزَّ شأنه يحدثنا عن المؤمنين الأقحاح الذين إيمانهم محض، وبقينهم بحث، ولم يكتنف حياتهم مثقال ذرة ظلم. فهو حينئذ يريد بذلك الذين استخلصهم وجعلهم صفوته، وأعدَّهم لهداية عباد. إما عن طريق التبليغ والبلاغ بالإنذار والبشارة، أو عن طريق تحقيق الهداية، وتأكيد لها لأهل الاستعدادات الصافية، والقابليات المشرقة، الخالصين من أي كدر ودرن، وعن حقيقة هؤلاء يقول الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ) (الأنعام، الآية ٨٢)

ويقول الإمام علي (عليه السلام) عن العدل: (العدل أساسه قوام العالم) (الري شهري، ١٣٨٩ ش، ج ٦، ص ٢٤٢٤) ويقول كذلك: (العدل فضيلة السلطان) (الري شهري، ١٣٨٩ ش، ج ٦، ص ٢٤٢٥) وقال أيضاً: (الفضائل أربعة أجناس: أحدها الحكمة وقوامها في الفكرة، والثاني العفة وقوامها في الشهوة والثالث القوة وقوامها في الغضب، والرابع العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس) (الري شهري، ١٣٨٩ ش، ج ٦، ص ٢٤٢٨) وسئل المولى الصادق عن صفة العادل؟ فقال: (إذا اغضَّ طرفه عن المحارم، ولسانه عن المآثم، وكفَّه عن المظالم) (الري شهري، ١٣٨٩ ش، ج ٦، ص ٢٤٢٩)

فالأمة المنكسرة، والمغلوبة بظلم الظالمين، تفتقر في حالات ضعفها وانكسارها إلى مخلص يخلصها من أيدي الجائرين، وكيد الكائدين، وينبغي أن تكون في جميع حالاتها مستعدة لاستقبال الحاكم العادل واحتضانه، وإنجاح مشروعه، وأن تؤمن دائماً باستمرار وتيقن بأن المخلص قادم لا محالة، وهو بما يحمله من صفات ونعوت جميلة وحسنة كلية ليست إلا عنده حصراً. وإن كانت عند غيره محدودة وناقصة ومقيدة، فهي عنده كاملة ومطلقة. فهذا الحاكم سيجلس على عرش الدولة، وستكون حكومته حكومة تحكم بالعدل والإنصاف، وسيعود الصلاح والإصلاح إلى النفوس، وسيعمر المجتمع بعد طول هدم وفساد وإفساد.

فقد ورد عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (قلت: لأي شيء يُحتاج إلى النبي أو الإمام؟ فقال: لبقاء العالم على صلاحه) (المجلسي، ١٤٠٣ ق، ج ٢٣، ص ١٩) وهذا أمر واقع ومذكور في الكتب والأسفار. ففي ظل وجود شخص الإمام الذي يحكم بأمر الله، ستعود الأمور إلى نصابها، وتحكم يد الحق والعدل، وتقطع يد الظلم والظالمين، ويدخل نور الهدى والصلاح إلى جسم الدولة بكل مكوناتها، على مستوى الأفراد والجماعات.

وأمثال هذا الواقع، قد حصل ووقع في التاريخ السابق، ومع الأنبياء والأئمة والأوصياء، وخصوصاً في عصر النبوة المحمدية، وأيضاً في عهد ووقت دولة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وإن كانت الظروف في عهده صعبة وقد حالت الوقائع والأحداث دون تحقيق الدولة المراد تحقيقها على أساس العدل الإلهي، وإنصاف جميع من يعيش في كنفها، وهذا الذي قد حصل مع أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين فرضت عليهم الإقامة الجبرية، وتمّ سجنهم والتضييق عليهم. فاستضعفوا وأدى استضعافهم إلى عدم بناء الدولة التي يقودها الإمام الحاكم العادل الذي يحقق الأمن للجميع، وتشرق شمس عدالته ليعم شعاع قرصها كل ناحية من نواحي الوجود.

وهذا الشيء أو المعنى ذكرته آية الاستضعاف، ومما هو معلوم بأن اللوم أو العتاب على الإمام المستضعف إن لم يستطع فرض عدالته في بيئة مجتمعية رافضة له ولحكمه، وتقف بكل شدة وقوة سداً منيعاً في وجه مشروعه المثالي ودعوته الإلهية، لئلا تنتشر أفكاره الملكوتية، وتلقى أحكام شريعته قبولاً عند منتظري سلطة الحق والعدل.

وفي هذا الشأن يقول الله عزّ برهانه: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصاص، الآية ٥) فهذه الآية والتي بعدها، ومن خلال استعمال واستخدام الأفعال المضارعة الدالة على الاستمرار والديمومية، نجد فيها دلالة متينة على فناء الحكومات الظالمة مهما طال أمد حكمها، وأن مصير المستضعفين في كل زمان ومكان هو النصر الحتمي، ولا بد من ولادة الدولة الإلهية بكل مقوماتها التي وعد الله بها عباده الصالحين.

الحكومة الإلهية والإمام العادل

لا يمنع العقل أو النقل من وجود حكومة ربانية قائمة على الحق والإيمان والعدل النسبي قبل ظهور قائم آل محمد عجل الله فرجه الشريف، وقبل أن ينشئ الدولة الإسلامية التي تحكم العالم كله. وذلك لأن الآيات تتحدث عن مطلق

الأزمة ولا تقيّد أو تخصّ زمناً دون زمن، وليست الآية مختصة بذكر الحكومتين، الأولى وهي دولة بني إسرائيل، والثانية وهي حكومة ودولة الفراعنة. وأن مصير الأولى البقاء والأبد، وأن الثانية مصيرها الزوال والفناء.

فالمراد من الآيات هو القانون الكلي العام الشامل لكل قرن وأمة. ولكن بالنظر إلى صراحة بعض الآيات، ووضوح الكثير من الروايات نرى أن المقصود من المذكورين في آية الاستضعاف هم آل محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام. لقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها، وتلاعق ب ذلك: (ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض....). (الطبرسي، ١٤٢٧هـ، ج ٧، ص ٣٣٤) وقال الإمام السجّاد عليه سلام رب العباد: (والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً إنّ الأبرار منا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته، وإنّ عدونا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه) (الطبرسي، ١٤٢٧هـ، ج ٧، ص ٣٣٥) وقال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي: (والروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة). (الطباطبائي، ١٩٩٧م، ج ١٦، ص ٣٠٣)

فإذا كان الإمام العادل موجوداً، ولم يستطع فرض سطوته وسلطانه، ونشر أفكاره المتألّفة بين الناس بسبب مواجهة المستكبرين له، والوقوف ضدّه، فهو يأخذ صفة المستضعف في الأرض بسبب انقضاء العباد من حوله، ومحاربة الطغاة لمشروعه النهضوي، وتجييش الجيوش وعسكرة العساكر للقضاء عليه وملاحقة أنصاره وأعوانه، والنيل منهم بطرق شيطانية.

تحول هذه الطريقة الخسيسة دون تحقيق أدنى ما يُراد تحقيقه. وهذا ما حدث مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) والمستضعفين من أصحابه وشيعته، كيف أن معاوية الطاغية حارب أمير المؤمنين وألب الحاقدين ضده وشغله هو وهم عن تأسيس دولة الحق فقتلوه واغتالوه وبعد استشهادهم لوحق المخلصون من شيعته فقتل من قُتل ونُفي من نُفي وسُجن من سُجن وعُذّب من عُذّب.

ولكن وعد الإله كائن لا محالة شاء الطاغية أم أبى. هذا إن كان على مستوى ما حققه بنو إسرائيل وكيف تحقق نصرهم عندما أخذوا بخُجزة سيدنا موسى (عليه السلام)، أو ما تحقق في زمن رسولنا محمد (صلى الله عليه وآله)، أو ما سوف يصبح واقعاً في عصر ظهور مهدي آل محمد، والذي سيكون فيه الإمام المهدي مثال الحاكم العادل، والإمام الذي يُمكن الله له في الأرض كما يقول الله عز وجل: (...وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) (القصص: ٦)

وسيحفظ الأرض من أن تسيخ بأهلها. وإذا كام هو حافظاً لها قبل ظهوره، فما الاعتقاد إذاً بعد الظهور من تثبيت دعائم دولته وأسس حكومته؟ فقد ورد عن أبي حمزة الثمالي قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): (تبقى الأرض بغير إمام؟ فقال: لا، لو بقيت بغير إمام لساخت) (الصدوق، ١٣٨٥ق، ج ١، ص ٢٣٤) وجاء عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: (لا تبقى الأرض بغير إمام ظاهر أو باطن) (الصدوق، ١٣٨٥ق، ج ١، ص ٣٢٣)

فهذه إشارات ودلالات تشير وتدلل على أنَّ الله لا يمكن أن يترك أرضه بلا داعٍ إليه يبلغ العباد في سائر البلاد رسالة الله ويؤدي أمانته، ويسعى بكل ملكاته وآلاته المادية والمعنوية وبحكمة تامة لإحقاق الحق وإهلاك الباطل، ورفع الظلم عن المستضعفين والمضطهدين، وبسط العدالة في مجتمع دولة نور الحق. وهذا هو الهدف وليس غيره. فقد قال عبد الله بن العباس: (دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) بذى قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها! فقال (عليه السلام): والله لهي أحبُّ إليَّ من إمرتك، إلا أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً) (نهج البلاغة، ج ١، ص ٨٨-٨٩) ولأجل هذه الغاية وجدنا الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: (إنَّ الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام). (الكليني، ١٣٦٣ ش، ج ١، ص ٩٤)

مستلزمات عدل الإمام

الصلاة بالمعنى المطلق

إنَّ من المسؤوليات والوظائف التي ألقاها الله على أئمة العدل والهدى إلى جانب فعل الخيرات التي كلها من فروع العدالة، ولها مفهوم مطلق كما يؤكد هذه القاعدة، دائماً الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره الأمل، فإلى جانب فعل الخيرات كما قلنا هناك وظائف أخرى منها أن يحث الإمام المؤمنين على الالتزام بعبادات الشريعة كالالتزام بأخلاقياتها وآدابها الحسنة، لأن المجموع هو هوية الجميع، ولا يجوز إسقاط أو إهمال جانب من الجوانب أبداً. خُلُقاً كان أم عبادة.

وقد ذكر المفسرون هذه اللطيفة البلاغية المتمثلة بتقديم فعل الخيرات على إقامة العبادات في قوله تعالى: (...وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ) (الأنبياء، ٧٣) فهذا يُقال له في علم البلاغة العربية: (تقديم العام على الخاص). لأنَّ المدين كما هو عبادات ومفترضات وطاعات تزيد المؤمن قرباً من خالقه ويرقى بها درجة فدرجة، أيضاً هو أخلاق وتربية نفوس، وفعل خيرات، والتي من دونها يصبح مقيم الفرائض والعزائم فارغ المحتوى، وسيء المضمون. وإنَّ الله تعالى هو القائل في القرآن: (...وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً) (المزمل: ٢٠)

وقد ذكر القرآن أنَّ أحد أسباب سلوك سقر هو عدم إطعام المساكين، إذ يقول الله سبحانه: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤)). (المدثر، ٤٢-٤٣-٤٤) فإنَّ معنى عدم إطعام المسكين، هو الاستنكاف عن عدم مدِّ يد العون والمساعدة إلى أهل الفاقة والفقر والحاجة، والامتناع عن إسعاف الملهوفين من الفقراء والمحتاجين الذين حُرِّموا من حقوقهم الاقتصادية الشرعية، وحتى وإنَّ كان معنى الآية في سورة المدثر أن الذين منعوا زكاة أموالهم وصدقاتهم، سيكون لهم هذا المصير الأليم. لأنَّ الزكاة إذا مُنِعَتْ رُفِعَتْ البركات، وانعدمت الخيرات، وأمسكت السموات، وتلاشى معنى الحياة.

إذاً إلى جانب مسؤولية الإمام المفترض الطاعة بمقتضى عدالته وعلمه، أن يفعل الخيرات بكل مصاديقها ومعانيها، أيضاً عليه أن يأمر الناس ويحثهم على إقامة المفترضات وعدم التفريط بالمسائل العبادية. فقد كان خلق رسول الله (صلى الله عليه وآله) القرآن، وكانت قره عينه الصلاة، وزدّت الشمس للإمام علي (عليه السلام) لأن الصلاة فاتته وأصحابه، وسمي الإمام زين العابدين بالسجاد لكثرة سجوده وصلاته، وعندما نصب الإمام الحسين (عليه السلام) خيامه ودارت الحرب ورحاها ما ترك وأصحابه الصلاة أبداً، حتى تعجب عدوهم في كربلاء من شدة انشغال الإمام الحسين (عليه السلام) بقراءة القرآن والمحافظة على إقامة الصلوات، فالتزم الإمام المعصوم بمفترضاته يزيد الناس تمسكاً بهذه المكتوبات، والله تعالى يقول: «فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا» (النساء: ١٠٣)

فلأن الصلاة تُهذّب الأنفس، وتُنهى عن الفحشاء والمنكر، فعلى هذا الأساس كانت لها هذه القيمة، وذلك الوزن. الثقل المادي والمعنوي، ولأنها فريضة لا يجوز تركها ولا تغييرها ولا تبديلها أمر الله بإقامتها حتى في ساحات الجهاد والقتال، وجعل لها الشرع كيفية خاصة بها سمّاها (صلاة الخوف). فهذه الآية والتي قبلها وما بعدها من سورة النساء تظهر أهمية الصلاة وقيمتها على المستويين اللطيف والكثيف، ولذلك كانت إحدى وظائف الإمام إقامة الصلاة وعدم تضييعها ولا التفريط بها. فقد قال الإمام الصادق (عليه السلام) لأبان بن تغلب: (يا أبان الصلوات الخمس المفروضات من أقام حدودهن وحافظ على مواقيتهن لقي الله يوم القيامة وله عنده عهد يُدخله به الجنة، ومن لم يُقم حدودهن ولم يحافظ على مواقيتهن لقي الله ولا عهد له. إن شاء عذبه وإن شاء غفر له) (الكليني، ١٣٦٧ ش، ج ٣، ص ٧٣٣)

فإن الأمة حين أقامت الصلاة وحافظت على أوقاتها ولم تفرط بفرض من الفروض، وتخلقت بأخلاق خالقها واقتدت وتأسّت بنبيها ورسولها فإنها وقتئذ انتفعت وارتفعت ونمت وسمت فانتفت وارتقت. فمتى ما أُقيمت الصلاة يعني أن الأمة تمسكت بحبل الله المتين واعتصمت بالعروة الوثقى واتصلت بعالم الغيب، وتحققت سعادتها، وصفت حياتها، وولى شقاؤها، وتأكد نماؤها، وإن الله تعالى جعل إقامة الصلاة ضمن ضوابط وشروط ومواقيت ومقدمات، إذا التزم بها أبناء المجتمع التوحيدي أعطت وأثمرت نتائج تجعل الملتزمين والمقيمين لها يستشقون روائح الجنة وهم على الأرض. والصلاة هي وصية للأنبياء من قبل الله تعالى كما يقول سبحانه: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) (مريم: ٣١) وهي كذلك وصية الأنبياء إلى أممهم وأقوامهم.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

نهج البلاغة

١. ابن بابويه قمى، محمد بن على، معاني الأخبار، (١٣٧٧ش)، تهران، دارالكتب الاسلاميه.
٢. الرى شهرى، محمد محمدى، ميزان الحكمة، (١٣٨٩ش)، ايران، قم، مؤسسه علمى فرهنگى دار الحديث.
٣. الصدوق، أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمى، علل الشرائع، (1385ق)، ايران، قم، مكتبة الداوري، عراق - نجف اشرف، المكتبة الحيدرية
٤. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، لبنان، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
٥. الطبرسي، أبى علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، لبنان، بيروت، دارالعلوم
٦. الكاشاني، محسن الفيض، تفسير الصافي، (١٤١٦هـ)، قم، مؤسسة الهادي.
٧. الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، (١٣٦٣ش)، طهران، دار الكتب الإسلامية.
٨. الكليني، محمد بن يعقوب، الفروع من الكافي، (١٣٦٧ش)، طهران، دار الكتب الإسلامية.
٩. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، (١٤٠٣ق)، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
١٠. المشكيني، على، مصطلحات الفقه، (1419ق)، ايران، قم، نشر الهادي.